حـــــوار حـــــول

المـــــواطنة

شحصيات المحاورة

صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي، سيدة ثرية جميلة مثقفة.

سليمان: مثقف يحمل لــواء العقــل وسيادة قوانينــه.

حســام: شاعــر مبــدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.

ليلــــى: ناظرة في تكميلية رسمية.

سنـــاء: مدرِّسة موسيقى.

أحمــد: تاجـــر.

صونيا: في إحدى مهرجانات الصيف في قريتي الجبلية المزنرة بأشجار الصنوبر وغابات السنديان تجمع رهطٌ من المقيمين والمغتربين ووقف أمامهم على منبرٍ معدٍ للمناسبة أحد جهابزة الفصاحة والبلاغة وأخذ يخطب بالجماهير الغفيرة والغفورة بادئاً خطابه بهذه العبارة، لو لم أكن لبنانياً لتمنيت أن أكون لبنانياً، ولو لم أكن إبن قرية ريم لتمنيت أن أكون إبن قرية ريم.

إذا كان صاحب هذه العبارات صادقاً في قوله فهي مزيجٌ من التعصب القبلي والعنصرية الممزوجة بالكثير من الخيال الرومانسي. سألت نفسي ماذا لو كان هذا الخطيب وُلدَ سودانياً أو صومالياً هل كان سيردد نفس العبارة معتزاً بوطنه الصومال وأكواخ ضيعته المبنية بالطين والقش، وأهله الحفاة العراة الجهلة الجائعين وهل لهذا الإعتزاز أية قيمة موضوعية؟ أم هو إعتزازٌ صنعته الصدفة.

سليمان: إذا كان الخطيب يختار بإرادته الواعية أن يكون لبنانياً فلا بدّ أنه يرى في الشعب اللبناني فضائل لا توجد في أي شعبٍ آخر، وصفات عقلية ونفسية وجمالية لا يراها في أي شعبٍ آخر. هل يتميز اللبنانيون مثلاً بالمحافظة على هويتهم الوطنية؟ هل يتميزون بوحدة الكلمة ووحدة الرؤيا؟ هل يتميزون بالوقوف موقفاً واحداً أمام العواصف التي تعصف بهم من دول الجوار؟ هل انتقل اللبنانيون من تجمع قبائل ومذاهب وأثنيات الى مجتمع عضوي له وحدته الكيانية؟ عددوا لي فضيلة واحدة يتسم بها اللبنانيون اليوم غير تصدير شبابهم الى الخارج، فإذا حالفهم الحظ وجمعوا ثروات كانت عودتهم الى الوطن الأم مرحباً بها، وإلا فهم مذلون مهانون مبعدون، حتى أنه غير مسموح لهم أن يشاركوا في انتخاب نواب الأمة ومجالسها.

حسام: شعارات رنانة جوفاء نرددها ليل نهار عن شعبنا اللبناني العظيم، والمؤلم أننا من فرط ترديدنا للأكاذيب صدقناها وأخذنا نحولها الى أغانٍ نغنيها، وأناشيد ننشدها، وقصائد نلقيها في المهرجانات، وزجليات نقول لأطفالنا أننا إرتجلناها للتو من وحي المناسبة، ونحن كنا قد علكناها آلاف المرات واجترياناها آلاف المرات.

سناء: والذي يزعجني أكثر أننا نتمسك بما يسمى أجدادنا الفينيقيين، وما قدموه للبشرية من إختراع الحرف وبناء المستعمرات الحضارية التي نشرت ثقافة السلام والعلم والتفاعل الحضاري بين الشعوب، ويصل بنا التباهي والتفاخر بأن ننسب أكثر فلاسفة اليونان الى فينيقيا، أنا شخصياً أحترم الفينيقيين وأعتز بإنجازاتهم الحضارية، ولكني أريد أن أفهم ما هي علاقتنا نحن أبناء الحاضر بالفينيقيين.

أحمد: نحن نتاجٌ مشوش فاسد لإختلاط جنود جيوش الفاتحين لبلادنا بسبايا وجواري الشعب المنهزم، إنَّ الفلاح البقاعي أو العكاري أو الجنوبي الذي إستبيحت أرضه وإنتهكت رجولته على يد جيوش الدول الغازية قروناً طويلة، قد فقد كل ما يربطه بأجداده الفينيقيين العظام، هل تريد أن تقول لي أنّ إبن صور اليوم هو حفيد ملكارت وأولئك القوم الذين بنوا قرطاجة وحاربوا الرومان في عقر دارهم، وزرعوا بذرة حضارية في الشمال الأفريقي حيث عاد الفاطميون فنموها فأخرجت من كل زوج بهيج حضارة عربية الوجه واليد واللسان، هل تريد أن تقول لي أنّ أهالي جبيل اليوم هم أحفاد أدونيس وعشتروت وبيبلوس العظيمة، أم يكون أهل بعلبك هم أحفاد العائلات التي قدمت لروما أعظم أباطرتها وبنت قبل أن يأتي الرومان بآلاف السنين قلعة بعلبك ومعبدها الذي سمّي أيام الرومان معبد باخوس.

ليلى: وطوال عهد اللبناني بالتعامل مع الغزاة الفاتحين ألِف التملق واستكان التزلف واكتسب مع الوقت نفسية السمسار، حاولوا أن تتذكروا كم رجلاً وطنياً مرَّ بتاريخ لبنان غير فخر الدين المعني، من بشير الشهابي الذي باع نفسه لإبراهيم باشا المصري وركع ذليلاً تحت أقدام الجزار العثماني، أم ما نراه اليوم في إبن الجنوب الذي يتقرب من الفارسي أكثر مما يتقرب من شريكه في الوطن في طرابلس ، أو ما نراه من إبن طرابلس الذي يتقرب من الباكستاني والشيشاني أكثر مما يتقرب من إبن الجنوب.

سليمان: لبنان القديم ليس لبنان بحدوده الحالية، لبنان القديم كان رمزاً لجبل لبنان ورمزاً لأولئك الأحرار الذين رفضوا التبعية والإسترهان بدءاً بالعصر الأموي وانتهاءً بالأتراك العثمانيين، أحرار من أثنيات مختلفة وديانات مختلفة تعلقوا بصخور هذا الجبل ومعاصيه، وعاشوا في غاباته عيشة الزهاد والمتصوفين فقط

ليتمتعوا بحريتهم ويكونـوا أسياد مصيرهم، قصة لبنـان هي قصة الحرية منذ مئات السنـوات، فلـولا قضية الحريـة لا مبـرر لوجود كيان إسمه لبنان، وإذا كان السهل والجنوب والساحل قـد جُعلوا جـزءاً لا يتجزأ مـن لبنان فهذا إجراء أخذه الفرنسيون دون أن يستشيروا أحد.

حسـام: أبنـاء الجبـل لا زالوا حتى يومنا هذا يحملون جينات الحرية والسيادة وعدم الرضوخ لأي تبعية، ولكن ثقـافة المجتمع الإستهلاكي أفسدتهم حديثـاً.

صونيـا: وهـل تفسر أحداث المجاعة فـي الحرب العالمية الأولى التي سببها حصار الأتراك لجبل لبنان إلا بمحاولة الأتراك خنـق فراشة الحرية التي أوشكت تخرج من شرنقتها؟

سنـاء: ولقد غادر أجدادنا الى الأميركيتين ومصر وهناك أسسوا الجرائد والمجلات وأبدعوا في التجارة وأشعلوا نار النهضة أينما وطأت أقدامهم، إنها بذرة الحرية نمت في المغتربات وأنتجت عمالقة في المال والأعمال والأدب والفن والفلسفة.

أحمـد: فـي شرق عتيـق عـاش حياة الإرتهان والعبودية، شرق التبعية لحكام " بعد العصر العباسي الأول" أصبـ أكثـرهم مـن أصول تركيـة وجركسية وكردية، لقيط من الحكام الذين بـدأوا حياتهم رقيقـاً فـي قصور الخلفاء ثم تسلطنوا لضعف الخلفاء وغرقهم فـي شهواتهم وغبـائهم، كلهم مماليك لا أحساب لهم ولا أنسـاب بيعوا رقيقاً فـي أسواق النخاسة وتربـوا فـي قصور العباسيين ثم استولوا على السلطة وحكموا الناس بأخلاق العبيد ونزواتهم، أجدادنا الأحـرار رفضوا هذا الواقع فلجأوا الى جبال لبنـان يعتصمون بها لصيانة حرياتهم وكراماتهم وسيادتهم، ونجحوا فـي ذلك فجبـل لبنان عبـر التاريخ الطويل كانت له وضعيته الخاصة به تابع للحكم المركزي ضمن إستقلال ذاتـي معترفٌ به.

حسـام: قضية الحـرية هـي جوهر الكيان اللبناني، إذا غربت شمس الحرية لا يبقى للكيان اللبناني من معنى، بل لا يبقى له من وجود، اللبنانيون القدماء أبوا أن يضحوا بحرياتهم حتى لفـاتحين حضاريين أمثـال الإسكندر المقدوني الذي كان همـه الأكبر نشر الفلسفة والحضارة اليونانية لتصبـ حضارة البشر أجمعين. ما هـو المبرر الذي

جعل اللبنانيين التنوخيين يدافعون عن الثغور بوجه الصليبيين والتتار بجهود العمالقة ويقدمـون عشرات آلاف الضحايا حتى قاربوا الفنـاء لولا تشبثهم بذلك القبس الإلهي الذي إسمه الحـرية، مـا الذي جعـل فخـر الديـن يصارع التنين العثماني المتوحش ويحارب حتى آخـر رجـل لـولا العشـق المجنون لتلك الحسناء التـي يسبي جمالها العقـول والتي إسمها الحـرية؟

سليمان: يدبّجون اليـوم آلاف المقـالات في الإضاءة على المواطنة فلا يزيدونها إلا غموضاً وظلامية، مـا قيمة أي مواطنة إذا لم يكن حجـر أساسها الحـرية؟ ماذا ينفع مستوى دخـل الفـرد، وقـدرة الفـرد علـى الإستهلاك، ومستوى الخدمات، وكميـة خريجي الجـامعات، إذا كان الإنسان مرتهناً لإقطاع سياسي وديني ومالي هو بدوره مرتهن لقـوى خارجية، كفانـا فذلكةً وتبريراً، فأن نعيش صقوراً نعشش في شماريخ الصخور ونتـوؤات القمم ومغاور الوديان، نأكل الزعتر والزيتون والريحان البري، لأشرف ألف مـرة مـن أن نكـون حمـاماً محبـوساً فـي أقفاص ذهبية نأكل الكافيار ونشرب النبيذ الفرنسي والوسكي الأسكتلندي.

صونيـا: كأنك تقـول أنّ لبنـان في خمسينيات وستينيات القرن المنصرم أشرف ألف مرة وأجمل ألف مرة وأرقـى ألف مرة من لبنان القرن الواحد والعشرين؟

حسـام: تضاعف عدد خريجي الجـامعات عشرة أضعـاف ، وزادت قوة الإستهلاك عند الفرد عشرة مرات، وزادت ملكيتنا للسيارات والآلات الكهربائية عشرة مرات، ولكن دلنـي علـى خريج جـامعي واحـد تواصل مع تراثنـا الأدبي والفني والفلسفي تواصلاً إيجابياً قـل لـي كم عدد الخريجين الذين وجدوا فـرص عمل فـي لبنان ولم يهـاجروا الـى الخليج أو أوروبا أو الأمريكيتين أو أستراليا، إذهبـوا الى المغتربات وانظروا فـي حال المغتربين كيف هم مقسمون حسب الأديـان والطوائف والأحزاب والمناطق ويكاد يكـون التواصل بينهم مقطوعاً، إنهم يكيدون لبعضهم كما في الوطن كذلك فـي المغتربات، إنهم يرفضون الآخـر كما فـي الوطـن كذلك في المغتربات، نغني لوحدة الكلمة ووحدة الرؤيا ونلقي آلاف القصائد في المهرجانات، ونكتب آلاف العبـارات الجميلة على الفايس بوك، ثم نعود مطأطئي الرؤوس الى مضارب القبيلة والعشيرة والمذهب، حتـى جامعاتنا ومدارسنا إنقسمت مذهبياً وحـزبياً ومناطقياً، كل

هذا التكاذب فـي حـوار الأديان وحوار الأحزاب الى أين سينتهي بنا طالما أن قلوبنا معتمة لا شمس الحرية أشرقت عليها ولا قمر السيادة أضاء ليالي تبعيتها.

ليلـى: إنّ مفهومي للمـواطنة لا يتعدى أهلـي وأقاربي وذكريات طفولتي وأصدقائي فـي المدرسة والجامعة، يضاف الى ذلك حديقة منزلنا شجرة التوت الشامي، وكانت أمي لا تسمـ لـي بالصعود إليها إلا بعد أن أنزع ثيابي وألبس ثياباً خصصت لقطاف التـوت لأن العصير الأحمـر سيمرغ ثيابي من الأعلى الى الأسفل، وأشجـار التفاح والدراق والسفرجل والخـوخ، وعـرائش العنب التي كنا نتأرجـ بسقائلها، أما عندما سقطت مـن شجرة التين وكسرت يدي فلا زلت أتخيل الجبس حول يدي حتى يومي هذا.

سنـاء: النـاس اليـوم تخاف علـى أولادها حتى حدود السرساب، فلا يسمحون للولد باللعب إلا داخـل البيت، حتى الصعود الـى الشرفة يدعـو الـى الرعب، فـي أيامنا السالفة ومنذ سنّ الثـالثة والـرابعة كان الولد يسرح ويمرح كما يحلو له دون خوف عليه وكأنه راشد يستطيع أن يسوس نفسه، كنـا فـي سنّ السابعـة والثامنة نلعب بين أحـراج الصنوبر بعيداً عـن البيت والضيعة كنا نذهب يوميـاً الى حقـول العنب في أسفـل الضيعة بجانب ذلك الـوادي المشهور بشماشير صخوره ومغاوره التي كانت منـاجم فحم فـي العهد العثماني، كنا نشرب مـن نبع مشهور ترده قطعان الماعز، لم نكن نخاف من كلاب الرعيان وكنا إذا وجدنا حماراً مربوطاً في أحد الحقول نمتطيه ونلهو لساعات طويلة حارمينه مـن مرعاه، أواخر أيلول موسم المعاصر كنا نشارك أهلنا في السهر حـول المعصرة نشوي البطاطا ونأكل رغـوة الدبس ونرقص ونغني ونساعد فـي إحضار الوقـود ورميها تحت الخلقين، لم يكن أحد يخـاف على أحد أو يخاف من أحد، كانت الضيعة عائلة واحدة شيخ الضيعة أبو سلمان وخوري الضيعة الياس كانا يساهمان فـي رفس العنب فـي الجـرن بأقدامهم العارية ويشاركونا الغناء والضحك والصراخ وإحضار الوقود، عندما أصبحنا في سنّ الثانية عشرة كنا نذهب مشياً علـى الأقدام مجموعة كبيرة من أولاد الضيعة صبيان وبنات الى قرية مجاورة تبعد عـن قريتنا خمسة كيلومترات حيث يوجـد سينما تعـرض الأفـلام الأميـركية الكاوبوي والقراصنة، كنا مغـرمين بأفـلام الغـرب الأميركي وأنا كنت منحازة الى

الممثل بارت لانكستر وغيري الى جـون واين وكنا نتخاصم مَـن من الممثلين أقوى وأسرع وأكثر رجــولة، عندما نخرج من صالة السينما الساعة التاسعة نذهب جميعاً الى محل الفلافل ثم نقفل عائدين سيراً على الأقدام الى ضيعتنا. كانت تكاليف الرحلة ليــرة لبنــانية نصفها للسينما ونصفها للفلافل والمرطبات والبزر، لم نكن نخاف في طريق العـودة من العتمة أو من عابري السبيل، كنا نغني ونرقص ونحن أكثر براءة وطهارة مــن ألف قديس مـن قديسي هذه الأيام، لا زال أولئك الأولاد أصدقائي حتى يــومي هذا، نتزاور كل صيف عندما نعــود مــن مغترباتنا لأننا قد تفرقنا أيدي سبأ، فبعضنا فــي أستراليا والبعض فــي البرازيل والبعض في الولايات المتحدة والبعض فــي الخليج، هذا هــو وطني الإلتقــاء بالأهل والأصدقاء كل صيف والتجول ما بين بحــر وسهل وجبل، والمساهمة في بعض الواجبات الإجتماعية من تعزية بالأموات أو تهنئة بالزيجات، وحضور بعض الحفلات والمهرجانات ثم العــودة الى مغترباتنا التي هي مصدر رزقنــا ومكان عملنا.

سليمان: إني أسجل ملاحظة مأساوية على المغتربين، فهم يهملون في معظمهم تعليم أطفالهم لغتهم الوطنيــة، فالأجيال التي تولد وتتربى في المغتربات غير متواصلة مع لغتنا القــومية ومع فنــوننا وآدابنا وأنماط تفكيرنا، وهذا مؤشر قطع حبل السرة بينهم وبين الوطـن في المستقبل، فلا يعود الوطن يعني لهم إلا قـرابة الدم وبعض الفلكلور والمآكل التقليدية كالتبولة والكبة النية وكأس العــرق، العجيب في هذا الموضوع أنّ الرعيل الأول مــن أهلنــا الذين هاجروا فـي أواخر القرن التاسع عشر هرباً من ظلم العثمانيين ثم إبان الحرب العالمية الأولى هربـاً من الجوع والذل، أولئك الناس وكان أكثرهم أميــاً إشتغلوا علــى أنفسهم فــي المغتربات فأسسوا الجرائد والمجلات وألفوا الكتب وساهموا في بنــاء أميركا فكــراً وأدبــاً وإقتصاداً وسياسةً بل إنهم ساهموا في إنهاض الفكــر في الوطن الأم بما بعثوه من روائع أدبية وشعرية وفنية، واليوم أكثر أهلنا يغتربون وفي جعبـة كل واحد منهم شهادة جامعية وهم لا يبعثون لنا لا أدباً ولا فناً ولا شعراً، لا يتقنون إلا الرطن بالإنكليزية والثغثغة بالفرنسية، وليتهم يقدمون لنا فكــراً راقيــاً بهاتين اللغتين، وعندما يعــود هؤلاء في زيارة للوطن بعد عدة سنوات نــراهم بصحبة زوجــاتهم الأجنبيات وأولادهم الذين لا يفهمون من لغة العرب حرفاً

واحـداً، ولا يغنون من أغانيهم أغنية واحدة والأهل يتباهون بأنهم تعمدوا عدم تعليم أولادهم اللغة العربية فهم لا يريدون أن يتخلقوا بأخلاقنا أو يتشبثوا بتراثنا.

صونيـا: هـل هذا يـدل أنه في واقع الأمر يوجد في الأمريكيتين وأستراليا أميركيين وأستراليين مـن أصل لبناني، ولكن لا يوجد لبنانيين إلا ما ندر، وشواذ القاعدة يثبتها ولا يلغيها.

ليلـى: إذن لماذا نحن نقيم الدنيا ولا نقعدها مطالبين بحقّ أولئك الناس بالمشاركة في إنتخاب نـواب الأمة، بل لماذا توجد الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم؟

سنـاء: لا تستغربوا ذلك فإبـن أخي الذي تخرج في لبنان من جامعة أميركية وسافر الى السويد، أرسل لي عبـر الفايس بوك في الأسبوع الماضي رسالة يقول لي فيها.. عمتـي لماذا لا تكتبين بالإنكليزية؟ وإذا كنت مصرة علـى الكتـابة بالعربية لماذا لا تكتبين باللغة العـامية وبالحـرف اللاتيني كـي أستطيع فـهم مـا تكتبين، هذه اللغـة الفصحى مـا لنـا ومـا لها، إنها لغـة أهـل البـادية وسكان الصحاري فمـا علاقتنا نحن اللبنانيون بها.

حسـام: هذا مـؤشر يـدل علـى أنّ هنـاك مؤامرة على ثقافتنا القومية ولغتنا القومية تتسابق مدارسنا المـربوطة بالإرساليات وجامعاتنا الأجنبية والطـوائفية على تنفيذها بنـداً بنـداً، ويكـون البنـد الأول لا تقرأ إلا ما يخدم إختصاصك فالثقافة العامة كذبة كبيرة، ثم يقدمون لك أسماء عشرات رجـال الأعمـال الأمريكيين الناجحين الذين لا يعرفون أيـن تقع فيتنام البلاد التي دفـن فيها آلاف الجثث الأميـركية، وإذا ما نطقت أمامهم بإسم لبنـان ظنـوه منتزهاً فـي لـوس أنجلوس أو فرجينيا، وهم يجهلـون أنّ عسكرهم هو الذي نهب متاحف بغداد يوم دخلها فاتحاً وساهم في تدمير أقدم حضارة على سطـ الكوكب، ثم فـوق ذلك يتباهون أنهم حماة الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان ومركز تفاعل الحضارات.

أحمـد: لـو سلمنا جـدلاً بأنّ اللغـة العـامية هـي خـزان الثقافة الوطنية، هل هؤلاء المتخرجين مـن المدارس والجـامعات الفرنسية والأميركية لا زالـوا يتذوقون فنون الزجل من عتـابا وميجنا وقرادي ومخمس مردود وغيره؟ هل لا زالوا قادرين على

تذوق جماليات ما كتبـه سعيد عقل وميشال طراد ورشيد نخلة وما أنشده على المنابر شحرور الـوادي ومـوسى زغيب وزغلـول الدامور وطليع حمـدان، كان كل شاب لبناني أمي أو متعلم يتقن تأليف أبيات المعنّا والعتابا وأبو الزلف والميجنا والمخمس مردود، جدتـي لا زالت تحتفظ بدفتـر أوراقـه صفـراء فيه أبيات عتابا كتبها جدي وغناها فـي الحقـل وهـو وراء فدانـه يفلّ أو وهـو يقصب الحجارة بشاقوفه، فـي العشرينات مـن عمري كتبت الكثير من أبيات العتابا الرقيقة الشفافة، حاولت مرة أن أقرأها على أختي التي ستتخرج هذه السنة ماركيتينغ من الجامعة اللبنانية الأميركية، فكانت تضحك وتستغرق فـي الضحك وهي تقـول، أولاً أنا لا أفهم ماذا تقصد، ثانياً أيـن هـو الجمال فيما تكتب، ثالثاً واعذرني هذه ألاعيب أطفال، نحن اليوم في زمن آخـر إذهب الى الزيتونة باي أو الى شارع مونـو أو الـى الجميزة وتمتع بالحضارة الحديثة، إنك مثل أجدادك القدامـى لا تتقن إلا الوقوف على الأطلال. وسألتها متغابياً ألا تحبين أغنية أم كلثـوم الأطلال؟ فازداد ضحكها وهي تقول هل تريدني أن أعيش بيـن مومياءات، صدقوني حتى فنّ الزجل ابتدأ يموت تدريجياً فلن تمرَّ سنوات قليلة حتى يبدأ بلفظ أنفاسه الأخيرة.

سليمان: الزجـل بجميع أنـواعه كان يجسد الوجـع اللبناني من جهة التعرض للظلم والإستبداد والتجـويع على أيـدي الأتـراك العثمانيين وقصص الإغتـراب المـؤلمة لـرجال عـازبين أو متـزوجين يغـادرون الوطـن تـاركين وراءهم الزوجة والولد والحبيبة والأهـل والأصدقاء والطبيعة التي هـي جزءٌ منهم وهم جزءٌ منها، هاربين من الفقـر والـذل والتهميش، وقد يعودون وقد لا يعودون، وإذا عادوا فبعد عشرات السنين، إنها ملحمة الإغتـراب اللبناني الموجعة، ولكن الرعيل الأول ظلّ رغم عمق المعاناة مخلصاً لمواطنيته متعلقاً بلغتـه وتراثه، مغتربو اليوم خريجي جامعات أولاد مجتمع إستهلاكـي وعـادات إستهلاكية، لا يهمهم إلا أناقـة ثيابهم وموديل سياراتهم وفـي أي مطعم يأكلـون وأي منتدى ليلـي يسهرون وأي كوكتيل يشربون، وأكثرهم ينهي سهرته بسيكارة حشيشة إن لم نقل أكثر، وبمضاجعة صديقته، وفي اليوم الثاني كلام الليـل يمحوه النهـار فلا إلتزام بالصديقة ولا بالصحبة بل عبثية مطلقة، والمهم هـو العثـور علـى المـال مـن أي جهة أتى، فالمصدر لا يهم طالما أنّ الغاية تبرر

الوسيلة، هـل المصدر إتجـار بالمخدرات، هـل هـو بغاء، هل هو إرتهان لأحزاب وزعامات، هـل هـو سمسرة وبلطجة، وإذا إغترب هؤلاء الناس فهم في مغترباتهم أشد فساداً، يتاجرون بالمخدرات في أوروبا وأفريقيا ويعملون في التهريب والأعمال المشبوهة، وأقلهم يبني لنفسه مركزاً علمياً أو فنياً أو حتى أسرة كريمة.

صونيا: الحرب فـي لبنـان التـي عبثت بالهـوية الوطنية وقسمت الناس الى مذاهب وأحـزاب ومنـاطق وثقافات مختلفة ستنسحب بدورها علـى البـلاد المجاورة والتي تعيش حـروباً ممـاثلة. وبالتـالي هنـاك عبث شمـولي فـي منطقة الشـرق الأوسط بالأوطـان ومفهوم المواطنة، النخب كلها هاجرت ولم يبق إلا البلطجية والإنتهازيين والذين يتـاجرون بالدم والديـن، وأصحاب الشعارات والفكـر الخطابي الذي يحاكي الغرائز ولا تهمه الحقائق فهو أصلاً لا يحاكي العقل.

حسـام: لم أرَ فـي حياتي شيئاً يتناقض مع فكـرة الحرية أكثر من العبثية، ولهذا أنا أعتبر أنّ مقولـة الحريـة إنتكست وإرتكست فـي لبنان فـي العشر سنوات الماضية وذلك لسببين، السبب الأول هـو اليـأس العميق " وإن لم يعترف أصحابه به " الذي أصاب جمـاعة المثقفين وفرسان الرأي والكلمة بعد تلك القافلة الكبيرة من الشهداء، هـذا اليأس الذي أصبـ مقولة قدرية بأنّ الإنسان مهما يفعل هو عبد قدره الذي رسم له قبـل أن يـولد، والبعض غـالى فـي هذا التصور فقـال لو لم نكن مستحقين للذل والهـوان والعيش بنفسية ومسلكية العبيد لما خلقنـا الله فـي هذا الشرق الأوسط الذي تسوده الديكتاتوريات والغيبيات والشعـوذات والتبعيـات لمصـالـ الـدول الأجنبيـة، والذي تصادر فيه الحـريات ساعةً بإسم إعداد العدة لإستعادة الأرض السليبة وساعةً بإسم الأديـان التـي تعتبـر " وإن اختلفت الأساليب " أنّ كل من تمنطق فقد تزندق، وكل مـن أبدع فقد خـرج عـن رأي الجمـاعة والإقتـداء بالسلف الصالـ، إنها لعبة إبتـزاز رهيبة لا تثمـر إلا شيئين هجـرة النخبـة الـى الخـارج مكرهين، وسيطرة الأوباش واللصوص على مقدرات البلاد مـن وسائل إعلام ومدارس وجامعات ومن جهة أخـرى تسليع المـرأة بحجة أنّ جسدها عورة وإبعادها عن ميادين الحياة العامة وإنتشار الكبت والشذوذ والمزيد من الغيبيات والشعوذات.

سليمان: لا أعتقـد أنّ هناك عبودية أقسى وأعتى من العبثية فالإنسان العبثي لا يمكن إعتباره كائن إجتماعي ولا كائن كوزموبوليتي أو ولا حتى إعتباره كائن فردي، لأن الكائن الفـرد يحقق إنسانيته بالوعي والحرية والمسؤولية، والعبثي لا يعيش من أجل إكتساب المعرفة التــي تطور إنسانيته وترقيها، ولكنه يعيش لشهواته ولمزاجيته التي تتبدل من يـوم الى آخـر، ويعيش فقط ليحصل على المال الذي يشبع رغباته ويجعله قادراً على ممارسة نزواتــه، فهـو إذا تعلم فلكي يحصل على شهادة تؤهله لوظيفة لا ليرتقي تعلمه ويـزداد فهماً لقوانين الطبيعة وقوانين العقل، وهو يكره الحرية بمعناها المــرادف للعقلانية وبوجهها الآخـر المسؤوليــة، العبثــي مــن أحلام عمره أن يجد الإنسان الذي يستطيع أن يكـون عــالة عليه، أو يجد الوظيفة الروتينية التي لا إبداع فيها ولا سعي حثيث لإكتساب معلومات ومهارات جديدة.

ليلــى: إسمحوا لــي بهذه المنــاسبة أن أسأل ســؤالاً يبــدو للـوهلة الأولى سخيفاً، كم طبيب مــن أطبائنا يملك موسوعة طبيــة وكذلك كم مهندس يملك موسوعـة هندسية، وكم أستــاذ يملك مكتبــة دسمة، كل هــذه الأشيــاء غدت مهنـاً مشابهة لمهن النجارة والحدادة وتصليـ السيارات.

سنــاء: بــل لنسأل كم إمــرأة مــن نســاء المجتمع عنــدنا اللواتــي يرطنّ بالإنكليزية ويثغثغن بالفرنسية على إطلاع علــى الأدب الإنكليزي والفرنسي وما يستجد فيه من إبداعات، لمن قــرأنَ مــن الكتـّاب وكم كتــاب قرأنَ وماذا فهمنَ وهل حرضهنَّ ذلك علــى الإبــداع؟ أكثرهــنَّ جــاهلات لا يتقــنَّ إلا البـوزات ولا يحفظنَ إلا الشعارات والنكات الماجنة.

أحمــد: العبثية تقضي على مقولة المجتمع وتحيي مقولة التجمع، فالعبثي غير مرتبط بأفــراح مجتمعه وأتـراحه بعزه وذله بكبريائه وإحباطه بإنتصاراته وإنتكاساته، يهمه سعر المشروبات الــروحية أكثــر من قضية التلوث أو البطالة، لا تهمه هوية الوطن وكينونته فهو لا يميز بين السيادة والإرتهان الى إرادة دولة أجنبية، لا يهمه إن كانت أحزاب البلد مهما اختلفت في طروحاتها كلها تقف تحت مظلة الولاء للوطن والسعي الى الخيــر العــام أو كانت أحــزاب تشتغــل لمصلحة دول أجنبية أو أديـان معينة أو

مذاهب معينة ولــو على حساب تدمير سيادة البلد وتخريب الإقتصاد وتمزيق النسيج الإجتماعي.

ليلــى: أصغيت مرة الى أبي وجدي يتناقشان في السياسة فقال أبي لجدي... من أجل قــوميتنا العــربية أضعنا مــواطنيتنا اللبنــانية، وماذا كانت النتيجــة ضعف شعورنا بمواطنيتنا ولــم نحصل مــن قــوميتنا إلا علــى أنظمة ديكتاتورية شمولية تعتمد نظام العسيس والمخــابرات الذي يهدم آخر ما تبقى من فروسية الإنسان ومروءته لتجعل منــه واش وكذاب ومنافق وشاهــد زور، إنّ الرؤية التي قامت عليها القومية العربية منذ البدء كانت رؤية غامضة كي لا نقول خاطئة، فبدل من أن تثمر تعاوناً إقتصادياً وعلمياً وأرض ثقــافية مشتركة وإنفتاحاً على الحضارات الأخرى وإستنهاضاً للمرأة وتحريرها مــن فتــاوى رجال الدين ومن لعنة كونها عورة، إذا بها لا تثمر إلا تدخل الــدول الكبيرة فــي شؤون الدول الصغيرة والعبث بسيادتها وتحريض مذاهبها وبث الــروح العنصرية ضدّ الأثنيات التــي هي عنصراً أساسياً في النسيج الإجتماعي منذ مئات السنوات.

صونيا: والدك رجــلٌ حكيم ماذا أثمــرت القــومية العربية غير إستبدال أنظمة فاسدة بأنظمة مخابراتية أشــد فساداً، ومجتمع يغرق في الفكــر الغيبي الديني بمجتمع يغرق بالفكــر الغيبي الأيديولوجي وعبــادة الأشخاص وعلك الشعــارات وتجويف الثقافات مستبدلاً العصبية القبليــة بعصبية حــزبية والإقطاع القديم بإقطاع جديد أعتى وأدهى وأكثــر براعــة في مصادرة العقــول والحريــات، ماذا فعلت القوميات العربية غير إضطهاد الأقليــات الأثنية وتنمية إحساسها بالدونيــة وبالتــالي زرع جينــات الحقــد والكــراهية فــي أحشــائها وزرع حلمها بالإنفصال عــن المجتمع الأم لبناء مجتمعها الخاص بها.

حســام: أول ثمــرة مبكــرة من ثمرات الفكر القومي كانت فصل السودان عن مصر وثانــي ثمــرة إستيــلاء الضبــاط علــى الحكم فــي أغلب البلدان وبنــاء ديكتاتوريات عسكــرية صادرت العقــول والحــريات بإسم صوت المعركة يعلو على كل صوت، وتحــرير الأرض قبــل تحرير العقــول، فلا الأرض تحررت بــل خسرنا المزيد ولا

اللاجئين عادوا بـل ضاعفنا عدد اللاجئين ولا العقـول تحررت بـل غرقنا في تقليد الأنظمة التي تقوم على مبدأ عبادة الشخص وعبادة أيديولوجيا الشعارات والأزلام.

سليمان: الخطـأ المميت فـي الرؤيـا والممـارسة القـومية ربطهـا بالديـن من جهة والعنصر الدموي أي الأثنية العربية من جهة أخرى، حتى أنّ كل أبناء الديانات غير الإسلامية شعروا وكأنهم خارج دائرة القومية، فهي لا تعنيهم وكأنها قومية المسلمين فقط، ثم تضييق الحلقـة أكثـر حتى أنّ أتبـاع المذاهب الإسلامية غيـر مذهب حكام الدول، شعروا وكأنّ القومية هي قومية مذهب الحاكم وهي لا تعنيهم أيضاً، زد على ذلك الشرائ التي تنتمي الى أثنيات غير عربية الحسب والنسب كالأكراد في العراق والأفارقة فـي جنـوب السودان والأمازيغ فـي الجزائـر، كل هؤلاء شعروا وكأنهم غربـاء على أرض سكنها أجـدادهم منـذ آلاف السنوات وساهموا فـي نسج تاريخها وتقـاليدها وعـاداتها وحضارتها، أليس شعوراً مخزياً أن يشعر الكردي، الذي ساهم أجداده تحت قيـادة الأيوبيين بدفع آلاف الشهداء في قتال الصليبيين وتحرير الأرض من رجسهم وأولها القدس، أنه أصبـ غريباً في قومية تعتمد الإنتماء العرقي، وكذلك الأمازيغ الذين دفعـوا آلاف الشهداء فـي محـاربة الفرنسيين واستبسلوا فـي السعي لحصول البلاد علـى إستقلالها وحريتها أن يجدوا أنفسهم شبه غرباء لأنهم لا ينتمون دموياً الى العرق العربي أو لأنهم لا يريدون دفن لغتهم الخاصة بهم مع إعتبارهم أنّ اللغة العربية لغة مقدسة، أخطاء مرعبة بل قصور في الفكر السياسي مرعب، ونحن الآن ندفع الثمن حـروباً أهليـة وبدايـة مرحلة جديدة في تقسيم البلاد وتمزيق النسيج الإجتماعي وتدمير الحضارات.

صونيا: هنـاك عشرات الأخطاء، لماذا لم يبدأوا بالتنسيق والتكامل الإقتصادي، لماذا لم يمددوا بيـن دول الجـوار شبكات سكك حديـد ويسهلوا إنتقال اليد العاملة ورؤوس الأموال وتبـادل المهارات، لماذا لم يبدأوا بالتنسيق والتكامل التربوي كي يصبـ عند كل الشباب العـربي لغـة مشتـركة ونمط فكـري متقارب ورؤية متناغمة إن لم نقل موحدة، لماذا لم يفهموا مقـولة شبه بديهية وهـي المحافظة علـى الخصوصية داخل الوحدة فتكـون الرؤيـة لبنـاء قوميـة سليمة منذ الخطوة الأولـى، لماذا أهمل كل بلد عربـي جذوره الحضاريـة القديمة ظنـاً منـه أنّ مصلحة العروبة تقتضي ذلك، كان

على المصريين أن يأتــوا الى العروبــة ومعهم حضارتهم الفرعونية والسوريون أن يأتــوا الى العروبــة ومعهم حضارتهم السريانيــة الآرامية، والعراقيون أن يأتوا الى العروبــة ومعهم حضارتهم السومرية البابلية الكلدانية الأشورية، واللبنانيون أن يأتوا الــى العروبــة ومعهم حضارتهم الفينيقية، واليمنيــون أن يأتــوا الــى العروبة ومعهم حضارة سبأ وحمير، بذلك تغتني العروبــة وبذلك فقط نعود لنحيي الحضارة العربية التي تأسست في العصر العباسي الأول.

حســام: كان يجب أن يبــدأ التنسيق ثم التكامــل الإقتصادي والثقــافي كتمهيد لوحدة الــرؤيا السياسية علــى نمط الأقــرب فالأقرب، فمصر مثلاً كان عليها أن تعرف أنّ التنسيق والتكامــل مــع السودان وليبيا له الأولويــة على القفــز الــى سوريا واليمن، وسوريا كان يجب أن تعرف أنّ التنسيق والتكامــل مع العراق له الأولوية على القفز الى مصر، والجــزائر كان يجب أن تعرف أنه بعــد الإستقلال خطــوتها الثانية هي التنسيق والتكامــل مع المغــرب وتــونس، وكذلك السعوديــة مع اليمــن، سلسلة من الأخطــاء قــادت الــى التشتت والتشرذم والتخــاصم وضيــاع الرؤيــة والجنوح الى التطرف ومزيد من الغرق في المتاهات، إنها محنة العقل العربي.

أحمــد: والحضارة العــربية فــي عصــورها العبــاسية والتــي كانت تتبــاهى بأنــها إستطاعت أن تهضم ثقــافة اليونانيين والبابليين والفرس والهنود والفراعنة، فتصنع كوكتيل ثقافــة إنسانية شمــولية مسكوب فــي قوالب اللغة العربية، إذا بها في العصر الحديث تخسر معــركة التفــاعل فمثقفيها إمــا متغربين شردوا باتجــاه الثقافة الغربية وقطعوا حبــل صرتهم مع الثقــافة الأم، وإما متشرقيــن عــادوا الــى الوقوف على الأطلال والحنين الى الخيام والغرق في الفقه الديني العقيم.

سنــاء: وهكــذا تشردنا فــي القــارات الخمس بسبب ما خلقته التناقضات من سلبيات ومن تخلف إقتصادي ترافق مع نمو سكاني، والمصيبة أننا أخذنا معنا الى مغترباتنا كــل أفكارنــا الرجعية والمتطــرفة وروحنــا العدوانية وتقوقعنا على أنفسنا خوفاً من الذوبــان والتــلاشي فــي الشعوب الأخرى وأصبحنا علامة فارقة في المغتربات بل أصبحنا مشكلة للــدول التــي إستضافتنا، فلا نحــن نتفــاعل حضاريــاً مــع ثقــافاتها وحضاراتها ولا نحــن نعــود الى بلادنــا، حتى أجمعت كل الدول والحضارات بأننا

أصبحنا مشكلة كوزموبوليتية، واليمين المتطرف في أوروبا وأميركا يقول أننا خلايا سرطانية في مجتمعاته يجب إستئصالها بأسرع وقت ممكن.

ليلـــى: الأنظمة الديكتاتورية الشمولية التي تصادر عقول الناس وحرياتهم وكراماتهم أمامنا، والتطرف الدينـــي وما ينتجه من روح عدوانية تؤلب كل شعوب العالم علينا من ورائنا وأين المفر بـــل أيـــن الخلاص؟

سليمان: لا خلاص إلا بالعـــودة الى منطق العقـــل، فالصحيح هو ما صح في العقل، بناء مجتمعات مدنية عقلانية تحترم جميع الديانات وتتعامل معها بالتساوي وتحتـــرم بديهيات العلم فـــي بنـــاء المجتمعات السليمة، ومن أولى بديهيات العلم ألا يزيد النمو السكاني علـــى النمو الإقتصادي، وترشيد الأسرة والمساواة التامة بين الرجل والمرأة وإعادة دراسة التـــراث الأدبي والديني بعقل نقدي موضوعي، والتفاعل مع إيجابيات الحضارات الأخـــرى، إنها معركة حياة أو موت بالنسبة للشعوب العربية والحضارة العربية.

الجميع: لا خـــلاص إلا بالعـــودة الـــى منطـــق العقـــل فالصحيح مـــا صح في العقل.. الصحيح ما صح فـــي العقـــل.